

من مسرات الحياة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قال ابن خفاجة الأندلسى الشاعر :

وشأن مثل أن يُرى خالياً بنفسه يبحث عن نفسه
وكنت كلما قرأت هذا البيت أعجب كيف لم ينظم قائله شعراً
كثيراً في بحث ميول النفس وأحاسيسها وتعليلها وتحليلها ،
وقد ذكر في بيته هذا أن من شأنه أن يخلو بنفسه يبحث عن
نفسه . ومن كان هذا شأنه فحَصَّ النفس الانسانية على اختلاف
تربتها ، وهذا عمل العمر وأكثر من العمر ؛ وهو أيضاً لذة
متجددة ، وإن أدى البحث إلى ما يؤدى إليه بحث قاع الجب أو قاع
البحر وما فيه من در ولؤلؤ ومرجان وغابات بحرية وأعشاب
وأحياء تقتل ويفنى بعضها في بعض ووحوش بحرية غريبة
مجهولة ، وجيف ورم ، وكنوز ثمينة في بقايا السفن الغائرة ؛
فكذا قاع النفس أيضاً لدى من يسبر غورها ويفوص في
أعمقها . وسطح النفس أيضاً مثل سطح البحر ، لج وخير ،
وشمس تتلألأ أشعتها ، ونسيم عليل ، ومنظر بهيج هادئ ،
أو عواصف وأعاصير ، ومرأى رائع جليل . وإذا كانت بعض
مظاهر النفس تبعث الرهبة ، فإن بعض بواطنها أدعى إلى الرهبة ،
ولكن من الرهبة ما يتصحب السرة ، كالرهبة التي يحسها
المرء وهو يستطلع الأمر الغريب الرائع المخوف المجهول ؛ ومن
أجل ما يتصحب من السرة نشأ حب الاستطلاع لما يستدعى
المخاطرة من مستطلعه

ولعل ابن خفاجة في بحثه النفس كان ينظر إليها نظرة السترج
في ظل الشجرة يفكر فيما حوله وكأنه لا يفكر ، فإن في مثل
حالة هذا السترج تفكيراً كلاً تفكير ، وبحثاً كلاً بحث ، فهو
تفكير يقنع فيه الرفه نفسه بالنظر إلى الرئيات وألوانها وأجزائها
من غير أن يبنى نفسه بالبحث عن سرها خشية أن تضيق لذة
الراحة والدعة ؛ فشأنه شأن السحور لإحراك له ، وفكره أيضاً
لا إحراك له ، ويخيل إليه في مثل هذه الحال كأن الدهر قد أوقف
دورته واستراح ، وكأنما يخشى أن يفك عنه الحراك سحر التأمل
ولذته المطلقة التي لا تتقيد بتقصى الأسرار والسببات ، ولا هي

مثل لذة المُخاطر الذى يرى في مشقة استطلاع الغريب المخوف
مسرة كما أوضحنا

على أن من اليسور أن ندرك ابن خفاجة في حالة أخرى من
حالات بحث النفس ، وهي الحالة التي يفوص الفكر على
المويص الناثر من أسرارها ، ويحس لذة في غوصه تملأ جوانب
نفسه حتى تشغله عن لذة التعبير عما يراه في بحثه تبييراً فنياً ،
فأى لا أحسب ابن خفاجة رأى أن تتبع حركات النفس
وخطراتها وأحاسيسها في شعره غير لائق بشعره إذ أى شئ ألصق
بالقريض من النفس وأحوالها وميولها وخطراتها ، فالشعر هولنة
النفس وموسيقاها ، ومقر كنوزها وحكمتها وأسرارها

ولكن للبحث في النفس مسرات مختلفة ، قد تفترق وقد
يتصل بعضها وينال في وقت واحد ، فمسرة فيما يجلبه التعبير
الفنى عن أحاسيس النفس من ارتياح الفنان الصانع في صنعه ،
ومسرة أخرى فيما يجلبه مشاهدة أطوار النفس والتأمل في أحوالها
من الارتياح كارتياح مشاهد القصة التمثيلية في تتبع روعة فن
القصة كما يبرزه الممثل

وهذا الارتياح غير ارتياح السحور المأخوذ بما يراه من النظر
الطبيعى أو الصورة الفنية النادرة ، وارتياح السحور هذا هو أيضاً
مسرة أخرى في التأمل في النفس البشرية

ولكل مسرة من هذه المسرات الثلاث قيمة في الحياة ،
وكل منها تعين المرء على تحمل متاعب الحياة وآلامها ، بل إنها
لتعين اليأس بما فيها من لذة فن البحث والتقصى على تحمل
ما يحس من يأس من النفس البشرية إذا لم يستطع غير اليأس
منها . وكل إنسان له نصيب من هذه المسرات الثلاث ، فكل
فنان ، وكل إنسان يمبر عما يراه في أعماق النفس تعبيراً فنياً ، إما
في ثنايا ما يسلى به نفسه في خلوته من الأغاني والأناشيد ، وإما فيما
يقوه به من الأمثال العامية أو غير العامية ، وإما في آهاته وأناته
وأمانيه ، وإما في ثنايا قصصه ونكاته وفكاهاته ، وفي مجالسه
ومبازله ، وفيما يقول في سخطه وحزنه وسروره ، أو في تتره
وشعره إن كان ناثراً أو شاعراً ، أو في أدوات الفنون الأخرى من
نحت أو تصوير أو موسيقى

وكما أن كل إنسان ينال نصيباً من لذة الفنان المبر عن النفس
تعبيراً فنياً ، فكل إنسان ينال أيضاً نصيباً من مسرة المشاهد

والأولى قلنا يفتن الناس إلى موقفها التمثيلي، والثانية قد يفتن الناس إلى موقفها التمثيل بعد ما بين حقيقة حالها وهزلها. ولعل فطنة الناس إلى موقفها التمثيل تكون في الحالتين بمقدار قوة اتقانها لدورها أكثر مما يكون ليل موقفها إلى الجدل أو الهزل؛ والرء في هذا الموقف النفساني التمثيل هو باحث متفهم لدوره دارس له كما يفهم الممثل دوره ويدرسه حتى ولو كان ممن يبيدون التمثيل بالسليقة من غير طول عناء في التفهم والدرس؛ ومسزته إذن متصلة بعمرات البحث في النفس والحياة

ولعل قائلاً يقول إن بحث النفس بحث معاد ملمول يجلب السأم، وإن النفس كالتاريخ الذي يعيد نفسه؛ لكن النفس إذا أعادت تاريخاً من تواريخها لم تمدد بالنص، وقد يأتي التاريخ مع الأسباب والسيئات القديمة بحوادث جديدة تستدعي التأمل وربط السيئات بالأسباب، وهذا ليس بالأمر الهين ولا هو بالأمر المعاد المملول، ثم إن تحت ما هو معاد ملمول من أطوار النفس وأسبابها أسباباً أخرى لا يصل إليها التقصي، وأعماقاً يعجز الغائص عن سبر غورها وفيها مجال واسع لحب الاستطلاع الغريب حتى يأتي الموت فيسدل ستاره على لعب الحياة المقدس إلا إذا مل المرء البحث من اليأس والمعجز عن بلوغ غور النفس لا من العرفان

والانسان في رحلة الحياة كالسافر الجواب للأقطار؛ وترى بين ذوى الأسفار من يتعجب من كل أمر، ومن يضحك من كل شيء؛ ومنهم من يتأفف من كل أمر، ومن يسخر من كل شيء؛ ومنهم من يتحمل أشد مشقة من شغفه باستطلاع الغريب أثناء أسفاره. والناس أيضاً في رحلة الحياة الدنيا يختلفون في أهوائهم؛ ومنهم من يتحمل أيضاً أشد مشقة وأمض ألم من شغفه باستطلاع الغريب مما تأتي به الأيام والليالي أو ما يراه في بحث النفوس البشرية. ومن ذوى الأسفار في أقطار الأرض من يحكم على قوم بحالة واحدة وآها في أحدهم، شأنه شأن الانسان في رحلة الحياة الدنيا يحكم على النفوس بحالة واحدة يحولها إلى قاعدة ونظرية عامة. وذوو الأسفار في الأقطار كالانسان في رحلة الحياة قد يتعجب ويستغرب الطبيب المؤلف من عادات الناس أو أحوال نفوسهم وأخلاقهم لأن الانسان ذو خيال يتوقع به أن يرى الناس على ما بود من أخلاقهم وعاداتهم وعلى ما يسره ويرضيه وينفعه منها،

لقصة الحياة والنفس التي تمثل أمامه، وكل نفس تحاول أن تحول كل ما يمر بها من الحوادث إلى قصة وفن وإن لم يفتن أكثر الناس إلى هذه المحاولة في أنفسهم. وكلما اضطرت الانسان إلى الخروج عن نشوة التأمل المشاهد لقصة الحياة والنزول إلى ميدان الألم الممض والأحزان، أدى واجبه من ألم الحياة وأحزانها مما لا مفر منه، ورجع بأسرع ما يستطيع إلى موقف المعبر عن الحياة والنفس، أو إلى موقف المشاهد لقصتها، حتى إنه ليحول أو يحاول أن يحول آلامه وأحزانه إلى قصة وفن وإن لم يشعر بتلك المحاولة من نفسه، لأنها في كثير من الأحوال محاولة طبيعية لا تمند فيها ولا تصنع، وإن كانت أحياناً تستلزم عملاً ظاهراً يلفت الرء إلى مجراها من نفسه كما يكون شأنها عند الفنانين

وإذا لم يستطع المرء أن يسرع في التنقل من موقف المؤدى واجبه المفروض من آلام الحياة وأحزانها إلى مواقفه الأخرى التي ذكرت حاول أن يجمع بين الأمرين في وقت واحد بأن يقف من آلامه التي يمانها موقف الممثل من آلام الشخص الذي يمثله في القصة، فيجتمع الانسان وقتئذ في نفسه نفسين، كما يجمع الممثل بين نفسه ونفس من يمثل، سواء أكان هامليت أو الملك لير أو عطيل الخ

وترى المرء وهو في هذه الحال وفي دموع حزنه معنى آخر مع ما فيها من معنى الحزن والألم

وإذا لم تستطع النفس أن تقف موقف الممثل من آلامها وشجونها التجأت إلى موقف السحور الأخوذ بصور الحياة ومناظر النفس سواء أكانت بهجة أو غير بهجة، وقُل لها تسحر بها في بعض الحالات كما تسحر بمناظر الجلال والروعة من مناظر الطبيعة الهائلة. وهذا أيضاً تحول من النفس والتجاء طبيعي لا تمند فيه فهو قلما يحس، وكلما كان نصيب المرء أوفر من ملكات التحول والاتجاه، أو قُل التهرب والنجاة من حوادث الحياة، كانت سيطرته على آلام الحياة أعظم، لأن هذا التحول إنما هو وسيلة من وسائل مكافحة آلام الحياة لا يحتاج المرء إليها إلا بعد الوسائل الأخرى

ومن المشاهد أن النفوس عند وقوفها موقف الممثل من آلامها وحوادث أيامها تختلف في منحائها، فنفوس يكون موقفها أشبه بموقف ممثل الجدل، ونفوس موقفها أشبه بموقف ممثل الهزل،